

التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

مدير مركز تنسيق التعريب بالرباط

الحضارة في مدلولها العام تستلزم طائفة من العناصر ، أبرزها : شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسي وضخامة القومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والمنعة والوفرة والامن والنظام . والحضارات تقوى وتتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصفة التي تصطبغ بها ، فهناك حضارات يطفئ فيها الجانب المادي على الجانب الروحي أي تسود فيها مظاهر العمران والمدنية الملموسة ، وتلك سمة يغلب وجودها في الحضارات الاوربية بخلاف الحضارات الشرقية ، التي تضم الى جانب هيكلها المادي مجموعة روحية لا تزال الانسانية تستمد منها الى الآن سواء في ميدان الفلسفة أم الاقتصاد أم الاجتماع . وغير خاف ان اقدم الحضارات في العالم هي الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية وآشورية وكلدانية وفينيقية وفارسية . ولهذه الحضارات الاسيوية تراث فكري ومادي كان ولا يزال من أجل دعائم الحضارة الغربية الآرية . واقول مادي لان كثيرا من الاختراعات قد استمدتها الانسانية منذ فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة .

ان من يتتبع مقومات الحضارات الانسانية يلاحظ ظاهرة قديمة وهي امكان رد معظم هذه المقومات الى المدنية الشرقية ، ففي الفلسفة وفي العلوم وفي الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة في كتب منها المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على ان كثيرا من مظاهر المدنية التي تبناها عصر الانبعاث في اوربا ترجع لاعمق العصور ولاعرق المدنيات الشرقية .

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلي وطبقا لمؤثرات تتفاعل فتسمها بطابع خاص .

فما هي وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالمية ؟ وما هي منزلتها كحضارة اسلامية بالنسبة للحضارات التي توالى على المغرب قبل الفتح الاسلامي ؟ وما هي علاقة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربية في عدوتى المغرب والاندلس ؟

ان العرب لما فتحوا افريقية والمغرب وجدوا الامم التي تنازعت السلطة في المغرب قبل دخول الاسلام اليه والحضارة القرطاجية قد قضى عليها طفيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاج واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على انقاضها شيئا جديدا ما لبث الوندال ان استأصلوه بدورهم ، ولكن لم يلبثوا في المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم ما ارتكبه هم في الرومان وما ارتكبه الرومان في القرطاجيين . وقد ذكر المؤرخون انه لم تمض ستة أشهر على انتصار الروم حتى عفوا على آثار الوندال بالبلاد . وخرج المغرب من سلسلة الاحتلال الاجنبية صفر اليد خاوي الوفاض منهوك القوى ، ووجد سكان البلاد - وهم البربر - انفسهم كما كانوا اول مرة بدائيين في حضارتهم . وقد اكد الاستاذ الفريد بيل Alfred Bel في كتابه (ديانة الاسلام في بلاد البربر ، ص ٦٤) ان مما لوحظ كون لفظة القرطاجيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الروماني والقرطاجني قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور ، وان البربر عادوا الى استعمال لغتهم والى اساليبهم الوحشية مما يدلنا على انهم لم يستفيدوا قلاما ظفر من حضارة قرطاج ولا رومة . ولعل الاستاذ بيل نسي ان يقول بأن الشيء الذي ظل متغلغلا في روح البرابرة هو اللغة البونية التي كانت قريبة من العربية والتي امتد اشعاعها على يد الكنعانيين العرب بين ابناء البربر من قرطاج الى قابس ومن طنجة الى بجاية .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلال الاجنبية ؟ ام كانوا مغمورين في بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شيء ان البربر اسيويون لا افارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبية . وجاء برايرة الاطلس المغربي على الخصوص من ربوع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع ابناء عمهم العرب الكنعانيين . فالحضارة البربرية حضارة اسيوية بدائية تركز على الزراعة والرعى ، وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذي كان ملحوظا بين عادات العرب والبربر والذي كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية .

وقد اخترع البربر احرفا هجائية في الوقت الذي اخترع الكنعانيون احرفا خاصة بهم ، والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعندما انكشف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر في تيار حضارتهم الشرقية الاصلية التي تتبلور فيها مثل عليا ملكت منهم المشاعر وتغلغلت في الاعماق حيث كانوا - كالعرب - يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب كما قال سديو (Sédillot) (ميول وعواطف واحدة ومبادئ متشاكلة كحب الفخر والهيام بالحرية واکرام الضيف) .

وقد وجد البربر انفسهم بعد الفتح العربي الاسلامي ازاء شعب من بني عمومته يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ولم يزد توالي القرون هذا التماذج الا قوة ، فتكونت مع الزمان مدينة مغربية مزدوجة القوام انصهر في بوتقتها تراثان كلاهما شرقي الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص .

وهنا تظهر حيوية الاسلام في افريقيا الشمالية وخاصة تلك الحيوية التي اقر بها الفريد بيل ، كما اقر بها قبله وبعده مستشرقون منصفون ، فالاسلام هو الذي استطاع وحده ان يخلق في هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر بعد ما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية رغم سموهما . واعني بالحضارة الحق حضارة تتركز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة واكتمال مقوماتها وتوفر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة تراثها وهذا الشيء قد اوجده الاسلام الذي انضوى المغرب تحت رايته طوال اربعة عشر قرنا .

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة ، وتطورت بجانبها حضارة اخرى هي حضارة الاندلس التي استمدت روحها من تراث الشرق الذي نقله الفاتحون والمهاجرون ، واضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك الروح جلبابا لم تكن لحمتها ولا سداه ليتمتد الى الاعماق حيث ظلت السيطرة للروح الشرقية وحدها .

ان للوضعية الجغرافية بعض الاثر في تكييف العقلية نوعا ما ثم الانتاج الفكري ثم مظاهر الحضارة ومع ذلك فقد ظلت الحضارتان الاندلسية والمغربية

شقيتين بعد ان تفاعلتا نحواً من ثلاثة قرون اي منذ عهد المرابطين الى عهد المرينيين تحت اشراف عاصمتي مراكش وفاس .

والثقافة الشرقية هي المنوال الذي حاك عليه رجال الفكر المغاربة منذ صدر الاسلام ، ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقي والمغربي اسلوباً ونزعة وروحاً لاحظ وحدة الجوهر ادباً وفلسفة واجتماعاً مع فروق سطحية مرجعها الى مقتضيات اللون المحلي .

فالحضارة المغربية شرقية بدءاً ونهاية ليس فيها اي اثر يذكر للحضارة اللاتينية التي قدر لها ان تمر مر السحاب في هذه البلاد .

والحضارة الاندلسية حضارة مغربية صميمة اي شرقية المبنى عربية المعنى . وقد تداولت عواصم العدوتين وبالاخص مدينتي فاس وقوطبة مع عواصم الشرق في حمل راية الحضارة العربية الاسلامية في العالم ايام كان الجهل رايضاً بكله الثقيل على اوربا ، فكانت فاس مركزاً للاشعاع الفكري والروحي يستمد من نبراسه الاوربيون كما هو معلوم عند من له ادنى الملم بتاريخ الحضارات .

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل في كثير من مقوماته الا بمساهمة المغاربة في بناء صرحه كالشريف الادريسي (استاذ اوربا) بجغرافيته وابن بطوطة برحلاته وابن خلدون باجتماعياته ، والحاتمي باشراقاته وابن رشد بفلسفته وفقهه وطبه وابن الخطيب بأدبياته وتكاثره (التي يبذل بها الجاحظ في كثير من الاحيان) وابن حزم بتنسيقاته الفلسفية والدينية ، وابن طفيل بنظرياته في الفلسفة الفطرية .

فنحن معشر المغاربة بعنصرينا امة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة وحضارتنا حضارة شرقية عربية اسلامية في جوهرها ومقوماتها .

وهي حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التي تتكون الحضارة من بعضها فضلاً عن مجموعها .

وقد عاش المغرب والاندلس متحدتين نحواً من ثلاثة قرون (من عهد المرابطين الى اوائل عهد المرينيين) وتم الانصهار والتمزج بين العنصرين اللذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من اواصر التزاور والمبادلة ،

فكانت الوفود الاندلسية تترى على مراكز عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية في عهد المرينيين ، وكان افراد الشعب المغربي الذين يهبون بين الفينة والفينة لانجاد اخوانهم سكان العدو الشمالية يتصلون بالعناصر الاندلسية ويقتبسون منها فكرا واجتماعيا . واستمر الاحتكاك عن طريق رجال مشهورين خلال القرنين الخامس والسادس حيث ظهر فلاسفة واطباء افاض كابن طفيل وابن رشد وبني زهر ، ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجري الذي شهد سقوط معظم العواصم الاندلسية في قبضة الاسبان حتى تضخمت حركة الهجرة فكان لذلك اثره الفعال في حياة المغرب الناعمة وقد توالي سيل المهاجرين الاندلسيين ايام السعديين فنقلوا معهم نماذج الحضارة الاندلسية التي طبعت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية وعند ما وقع النفي العام بالاندلس غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية كفاس وتطوان وسلا بعلماء وشعراء وفنانين وتجار وارباب حرف ساهموا فعليا في صهر الحضارتين صهرا طبعهما منذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تعذر معه رد كل منهما الى ينبوعه في كثير من الاحايين .

وقد أبرز الدكتور رينو Reynaud في كتابه الطب القديم بالمغرب (نشرة معهد الدروس العليا عدد ١ ص ٧٢) « امتزاج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين » فما هي اذن هذه العناصر الخالدة التي بلورت حضارة المغرب والتي لا تزال في روحها ومبناها كفيلة بدعم كل تطور عربي في العصر الحديث ؟

فمن ابرز مظاهر تراثنا الفكري والحضاري الصالحة لنهضة عربية حديثة تلك العناصر الاساسية للمنهجية العلمية والتقنية التي ارتكز عليها الانبعاث في اوربا بعد عصر النهضة وانطواء العصور الوسطى التي ظلت قرابة الف عام الاطار الزمني لازدهار الحضارة العربية في مختلف مجالاتها الانسانية فقد برهن العرب طوال قرون عن اصالة نادرة وعن روح خلاقة وعن استعداد للتكيف فأبدعوا منهجا تجريبيا رصينا لم يكن للانسانية عهد به وطوروا الاختصاص التقني وحرروا الفكر وعززوا شمولية الكشف العلمي بربط الماضي بالحاضر ودعم التبادل بين الشرق والغرب ، في تسامح وموضوعية وانكار للذات وتطلع عارم الى التضلع من اللغات واستكناه مختلف الاتجاهات والنظريات والمذاهب والنظم والعادات لدى الامم والشعوب ، تفتيقا للفكر وتوسيعا للافق ، وبذلك شادوا بنيانا شامخا ما زال الى الآن مؤثلا ومنبعا للفكر الانساني النزيه .

فلنستعرض اذن الوانا من الكشف المغربية في مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها ، ثم بعض المجالى الاجتماعية والاقتصادية والفنية لنستشف مدى اسهام المغرب الاقصى في دعم الكيان العربي الاسلامي خاصة والانساني عامة - فكرا وحضارة - بعناصر لا تزال غضة في منهجيتها وقوامها .

كان القرن الرابع في الاندلس هو عصر النهضة ، تفتق فيه الفكر العربي سواء من حيث دراسة الفنون والتقنيات أم من حيث الاختراعات والكشوف العلمية (١) . وهكذا برز ابن جليل كأعظم طبيب طبائعي في عصره عرب « مفردات ديسقوريدس » وزاد عليها الادوية التي جهلها والتي كانت معروفة عند العرب ، كما برز ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » الذي كان أعظم ممثل لفن الجراحة في المدرسة العربية (٢) اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى . وكتابه يعد اللبنة الاولى في هذا العلم اذ هو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصى المثانة واستخرجها بتشريح جراحى وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في رتق الجراحات . والظاهرة التي امتاز بها هذا الكتاب هو روحه التجريبية وتركيز النصوص على آلات اثبت صورها في كتاب هو أول تعبیر للجراحة كعلم (٣) . ويرى لوكير (٤) ان المغرب كان أشد اقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية يشهد بذلك - حسب القفطى (٥) - عدد الاطباء والصيادلة المقاربة الذين رافقوا المعز الفاطمي الى مصر .

وكانت بفاس في القرن الرابع مدرسة طبية (٦) . كما كان البرابرة قبل هذا العصر يستعملون الحقن بجراثيم الجدري لضمان حصانة المصاب (٧) . على ان القرنين الخامس والسادس قد عرفا في المغرب الاقصى تحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل - كما قال لوكير (٨) - تشهد بذلك رعاية البلاط المراكشي لامثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد ويني زهر . وقد اتصل بهذا الفن علم الصيدلة وعلم العقاقير والفلاحة حيث يعتبر كتاب ابن العوام أبي زكرياء يحيى بن محمد عديم النظر في الادب العربي (٩) « لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة وثمينة » بل هو أعظم ما انتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة « وقد كان الشريف الادريسي السبتي من هذا الطراز فطاف في آسيا وأوربا ووصف نباتات كل قطر وصفا اصيلا » (١٠) وكتابه في الادوية ملئ بالملاحظات الشخصية اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه

في الاعشاب (لوكير ج ٢ ص ٨) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص ٦٨) كما اعتمده استاذ ابن البيطار أبو العباس النبطي وهو مع تلميذه ابرز العلماء النباتيين العرب الذين لم ينجب الشرق من يضاهيهم في هذه الآونة عدا فخر الدين الرازي . وقد استطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه - كما يقول لوكير (١١) - ان يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الاسلامي وبفضل هذا الانبعاث العربي في الاندلس صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود واصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم ، وقد استنجد اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني واذ ذلك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية فنقل جيرار دوكريمون وحده من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا او اغريقيا معربا . على ان حركة الترجمة بدأت في المغرب العربي منذ القرن الرابع ، فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس مدرسة سالرنا وهي أول مدرسة من نوعها في اوربا كانت مبعث أنوار الطب الحديث في العالم الغربي شارك في التدريس بها الطبيب يونس العربي الفاسي (اللسان العربي ج ٥ - بحث الدكتور أحمد مكي) وقد ولد عام ٤٠٠ بتونس وتوفى عام ٤٧٥ هـ ، وظلت المخطوطات الطبية العربية التي حملها الى سالرنة غذاء أوربا عدة قرون ، وقد ترجم لللاتينية أهم كتب الطب العربي كزاد المسافر لابن الجزار وكتب للرازي واسحق بن سليمان الاسرائيلي ، والـف نحواً من أربعة وعشرين كتاباً منها « قانون الطب » في اثني عشر مجلداً وفياتيكيوم (١٢) في الطب العام في سبعة أجزاء .

ونبغ في الشرق العربي في هذا العصر علماء افاضوا تساوقت ابتكاراتهم مع زملائهم في الغرب منهم السويدي صاحب « التذكرة » المتوفى عام ٦٩١ هـ وابن ابي اصيبعة وجمال الدين القفطي علي بن يوسف المصري (٦٤٦ هـ) وعبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ) (حيث امتاز في وصف أعشاب مصر) وابن النفيس المصري (٦٨٧ هـ) الذي كان أعظم أطباء عصره . ولعل مما ساعد على تطور الطب وما اتصل به من علوم سهر المنصور الموحيدي على مصالح الاطباء وتنظيمه لمهنة الطب - وقد سبقه الى ذلك الخليفة المقتدر الذي فرض على الاطباء تأدية امتحان تقني فبلغ عدد المتخرجين ببغداد عام ٣١٩ هـ ثمانية وستين طبيباً (١٣) ، وقد اجري اول امتحان للصيادلة أيام المعتمد عام ٢٢١ هـ .

وكانت التجربة هي الطريقة العادية عند الاطباء حيث ظهر كتاب التذكرة لأبي العلاء زهر بن زهر الاندلسي الذي كان والده ابو مروان عبد الملك بن أبي بكر رئيس الطب ببغداد ثم بمصر والقيروان (١٤) ، وهو كتاب ترجم الى الفرنسية

عام ١٩١١ م بعد ان تعددت ترجماته عشر مرات بين ١٤٩٠ و ١٥٥٤ م كمجموعة من الملاحظات سجلها أبو العلاء لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراكش وبالادوية المناسبة لها . ولابي العلاء أيضا « مجربات » طبية جمعت بمراكش عام ٥٢٦ هـ يوجد مخطوط لها في الاسكوريال (رقم ٨٤٤) . ولعل ولده ابن زهر ابا مروان عبد الملك مؤلف كتابي « الاقتصاد » و « التيسير » قد بذ سابقه حيث اعتبر أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق (١٥) وكان لا يعالج الا بعد الفحص الدقيق وجس النبض والنظر الى قوادر البول لتحليله . وقد نهج ابن زهر خاصة في كتاب « التيسير » اسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة يصف الدواء على غرار اطباء عصرنا ويباشر الصيدلة لتجربة الادوية بنفسه ولذلك توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية في البلاط المراكشي الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله كالامراض الرئوية (التي منها تشريح القصبة في مرض الذبحة) وكذلك التخصص في الجهاز الهضمي حيث استعمل الانابيب المجوفة لتغذية المصابين بعسر البلع والحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب وارتكز على الطبيعة لعلاج الادواء (١٦) . وكان سر نجاحه هو تشبعه بروح العصر الحديث حيث كان يتسم مثلا بنكران الذات فينسى نفسه ويستغرق في مريضه وقد عرضت عليه حالات خطيرة حاول ان يعيشها مستمدا من ذكرياته وتجاربه ومنطقه . وقد برر كودار (١٧) Godard هذه الميزة عند ابن زهر فاكد انه استعاض بالمنهج التجريبي والطريقة العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام . ولعل من النقص الملحوظ في عصرنا الحاضر تباعد هذه العناصر المتزايد بعضها عن بعض ، اما الحفيد ابو بكر بن ابي مروان (٥٩٦ هـ) فقد اضاف الى تضلعه في الطب مشاركته في العلوم الاسلامية حيث كان محدثا يحفظ صحيح البخاري بأسانيد (١٨) ولم يكن في زمانه اعلم منه باللغة ، وكان شاعرا يحفظ ديوان ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب (١٩) . وظاهرة المشاركة هذه توفرت في كثير من الاطباء كأبي جعفر بن هارون الترجالي تلميذ ابي بكر المعافري في علم الحديث والمتخصص في طب العيون وابي يحيى هانئ بن الحسن اللخمي الفرناطي المشارك في الحديث والاصول والطب الذي (٢٠) تتلمذ لابن فرتون بفاس . ومن الاطباء الذين كان لهم باع طويل في التجارب العلمية الوزير ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة شيخ ابن رشد المتوفى بفاس عام ٥٣٣ هـ (٢١) وقد تعاون معه تلميذه ابو الحسن سفيان الاندلسي المتوفى عام ٥٣٧ هـ في

تأليف كتاب التجربتين (٢٢) . على ان ابن رشد نفسه ضرب اروع مثل في المنهجية التجريبية فاقترح في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الامراض الرئوية مشيرا الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (٢٣) . وابن رشد هو اول من اشار الى الدورة الدموية الكبرى وعللها في كتابه « الكليات » الذي استمد منه ويليام هارفي (William Harvy) معظم نظرياته وقد سبقه ابن النفيس المصري الى الكشف عن الدورة الدموية الصغرى او الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (٢٤) .

وهذه الروح العلمية الفياضة هي التي تمخض عنها ما اشار اليه مؤرخ فرنسي من الدّعاء العرب هو (رونان (Renam)) في كتابه Averroès et l'Averroïsme (ابن رشد ومذهبه) من اعتراف كريستوف كولومب في رسالة تركها بعد موته بأن الذي اوحى اليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه « الكليات » . على ان مجلة « نيوزيك » الامريكية اكدت (في عدد ابريل ١٩٦٠) ان العرب انطلقوا قبل سنة ١١٠٠ م (أي قبل كريستوف كولومب بأربعة قرون) من ميناء الدار البيضاء بالمغرب الأقصى فرسوا في عدة مواضع على الساحل الامريكي . واكد هذه النظرية كثير من العلماء (٢٥) .

اما المارستانات وهي المستشفيات والمصحات فقد وصف عبد الواحد المراكشي (٢٦) الذي عاش في بغداد - المستشفى الموحدى قائلا :

« وبنى أي المنصور الموحدى بمراكش بيمارستانا ما اظن ان في الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والشمومات والمأكولات واجرى فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسط احداها رخام ابيض ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحريير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت واجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية واقام فيه الصيدالة لعمل الاشربة والادهان والاكحال واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيرا امر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنيا دفع له ماله . . ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب

حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى . . ولم يزل مستمرا على هذا الى ان مات » .

وذكر ميللي (في كتابه الموجدون) المؤلف عام ١٩٢٣ ص ١٢٩ ان هذا المستشفى « لا يخلف وراءه مصحات اوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس » .

ولا بدع اذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لاوروبا فقد قال ولتر في مختصر التاريخ : « ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الاوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون اربابه اذ ان الكنيسة كانت قد حرمتهم عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بدخائر القديسين وبالتعاويد والرقى التي كان يبيعها رجال الدين » الى ان قال : وكان الاوربيون يستنكفون من النظافة لانها تشبه الوضوء عند المسلمين » .

وقد كان الاوربيون يضطرون الى اللجوء للمستشفيات العربية فهذا الملك شانجه توجه الى قرطبة من اجل العلاج من مرض الاستسقاء (لوكليز ج ٢ ص ٣٥١) .

وبدا افول الحركة الفكرية في المغرب آخر الدولة المرينية بعد سقوط غرناطة اوآخر القرن العاشر الهجري وردود فعل الاسبان الانتقامية (Reconquista) فلم ينبغ في البحث العلمي عدا رجال فلائل امثال الوزير الفساني مؤلف كتاب « حديقة الازهار » الذي نشر عنه الدكتور رينو (٢٧) دراسة اكد فيها ان هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع الاصاله والطرافة مع محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف اعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية . وقد ظل المغرب مع ذلك خلال العصور الاخيرة من تاريخه - بالرغم من احتلال البرتغال والاسبان لبعض مراسيه ومحاولة تدخل الاتراك في شؤونه - يواصل منهجه التجريبي على نطاق ضيق حيث ظهرت اساليب (٢٨) لمعالجة انواع الرمد وتشريح العين لازالة غشاوتها وتخدير المرضى قبل العمليات الجراحية واستخدام وسائل الايحاء والتنويم مع المهارة في طب الاسنان . وقد اعطانا الطبيب احمد بن حمدون بن الحاج (٢٩) المتوفى عام ١٣١٦ هـ (٣٠) للمرة الاولى في تاريخ المغرب تقسيما فنيا للدوية كما صنف الشريف العلمي الذي درس بالاسبطالية الكبرى بالقاهرة عام ١٢٩١ هـ كتاب « ضياء النبراس في حل مفردات الانطاكى بلغة اهل فاس » (طبع عام

١٣١٨ هـ) يحتوي على مفردات بربرية ولاتينية وفرنسية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيد والتقطير ووصف العمليات العلمية ، وهو كتاب متين التحليل يعتبر نقطة تحول في تاريخ الطب المغربي .

ولنضرب الآن مثلا آخر بشعبة من العلوم هي الرياضيات فقد كان العرب اساتذة النهضة الاوربية في الحساب (٢١) وقد فند سيدو (Sédillot) (٢٢) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرا الى ما ابدعه الفكر العربي في هذا المجال مثل ادراج الخطوط المماسية للدائرة (tangentes) في الحسابات والاستعاضة عن الاساليب العتيقة بحلول مبسطة اصبحت اساسا في علم حساب المثلثات الحديث (trigonométrie) وقد لاحظ العالم شال (Chasles) انه كان للعرب فضل التفكير في تطبيق الجبر على الهندسة وتأكد ذلك بعد ان نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام ١٨٣٦ م من طرف روزن (Rosen) وكان بينها بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطريق هندسية ويقال بأن الخوارزمي هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية (équation de 2^e degré) وان الذي حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر بن ابراهيم (٢٣) ولعل لفظتي الفوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش في عصر المأمون العباسي ونقلت كتبه في الجبر والمقابلة الى اللاتينية . وقد ابدع العرب في علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها في علم الفلك .

واسهم الغرب الاسلامي اي المغرب الكبير والاندلس في بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة في اللغريتم ، واشتهر في الاندلس ابو عبيدة مسلم بن احمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه وابو القاسم اصبع بن السمع (له تأليف منها المدخل الى الهندسة في تفسير اقليدس وكتاب كبير في الهندسة) وابو القاسم بن الصفار وابو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وابو الحكم عمر الكرمانى (من الراسخين في العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصفا في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابو الحسن مختار الرعيني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن احمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع في العدد

والهندسة) وابو حي القرطبي (بصير بالهندسة رحل الى مصر عام ٤٤٢ هـ)
وابو الوقشي الطليطي (الهندسة) (النفج ج ٢ ص ٨٧٤) .

وقد احصينا في « معجم الرياضيين بالمغرب الاقصى » الذي نشرناه عام ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م في مجلة « اللسان العربي » (العدد الثالث ص ١٣٤)
نحو من مائة وثلاثين من المهندسين والرياضيين وعلماء الهيئة المغاربة الذين
برزوا في هذا القطاع العلمي الهام وخلفوا لنا تراثا رائعا اسهموا به في دعم صرح
الحضارة والبحث العلمي في العالم ومن بين هؤلاء :

١ - المهندس الحاج يعيش الذي بنى لعبد المؤمن ابن علي الموحي مقصورة
وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتنخفض لدخوله .

٢ - المهندس عبيد الله بن يونس الذي استخرج مياه السقي بصنعة
هندسية (٢٥) .

٣ - ابن الياسمين الذي ولد بفاس واسط القرن السادس والخبر في
الجبر والمقابلة .

٤ - المهندس المعماري ابو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة مصمم
بعض الاجنحة في جامعة القرويين عام ٥٩٩ هـ .

٥ - ابن البنا المراكشي (المتوفى عام ٧٢١ هـ) صاحب مقدمة اقليدس
ومختصر الفلاحة والاصول في الجبر والمقابلة وتلخيص في الحساب شرحه ابن
المجدي احمد بن رجب بن طنبغا القاهري عام ٨٥٠ هـ واختصره ابن الهاشم
القرافي المتوفى عام ٨١٥ هـ .

٦ - علي اليفرني المكناسي (٧٣٤ هـ) وهو امام الرياضيات في عصره (٢٦) .

٧ - علي بن احمد التلمساني صانع منجاة المدرسة العنانية بفاس عام
٧٥٨ هـ (٢٧) .

٨ - امير المؤمنين في الحساب ابراهيم المصمودي ٩١٢ هـ (٢٨) .

٩ - الفلكي احمد الغزاني الفاسي ٩٢٠ هـ (٢٩) .

١٠ - محمد بن هلال امام التعاليم في سبته وشارح الجسطي في الهيئة
(٩٤٩ هـ) .

- ١١ - ابن مشون محمد بن يوسف السبتي صاحب الرجز في الجبر والمقابلة (٤٠) عام (٩٨٩ هـ) .
- ١٢ - السلطان احمد المنصور الذهبي الذي كان يفك كل يوم شكلا من كتاب اقليدس (٤١) .
- ١٣ - شيخ جماعة الفنون بمراكش احمد الثقلي الاختصاصي في الرياضيات والمساحات والهندسة وهو من رجال القرن الحادي عشر .
- ١٤ - محمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي (١٠٩٤ هـ) الخبير الاوحد في الرياضيات والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمساحة ، وقد عاش في بغداد فذاع صيته واخترع آلة فلكية وصفها صاحب نشر الثاني (ص ٨٧) .
- ١٥ - المنجم الرياضي محمد المسناوي مرينو (١٢٠٧ هـ) صاحب كتاب « تقدير قرض النفقات » في علم الاقتصاد الرياضي .
- ١٦ - الاستاذ المعطي مرينو (١٢٢٣ هـ) صاحب كتاب « كنز الاسرار في تعديل الكواكب » وكتاب ابعاد النيرات ورصده وكتاب المزاويل .
- ١٧ - احمد بن عبد الله التتاني الصوري (١٣٢٠ هـ) صاحب المؤلفات العديدة في الجبر والمقابلة واللفاريتم ، والذي حل اشكالا هندسية نقلها الى الرياضيات وكان رئيس الرياضيين والمهندسين ورئيس المدفعية في الجيش المغربي .
- واذا اعتبرنا شعبة اخرى من العلوم التطبيقية كعلم الجغرافية نلاحظ ان الخرائط العربية الاولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس ، وظل العالم طوال الف عام عالة على هذا الجغرافي والفلكي اليوناني الذي هو من رجال القرن الثاني الميلادي حتى ظهر الشريف الادريسي الذي وصفه كوتبي (٤٢) بأنه استاذ اوربا في الجغرافية ، حيث ظل الفرييون يستمدون ازيد من ثلاثة قرون من خريطته العالمية ، فكان اطول باعا من بطليموس واكثر دقة في ملاحظاته وتقديراته لان بطليموس احصيت عليه في تقديره للمسافة الفاصلة بين طنجة والاسكندرية وحدها اغلاط بلغت ثمان عشرة درجة طولية ، بينما تقل اغلاط تقديرات الادريسي للاطوال ما بين طنجة وطرابلس الغرب عن درجة واحدة . وقد نبه الادريسي على هذه الاغلاط .

ومعلوم ان الاقتصاد في كل امة يعد قواما جوهريا في تطورها الحيوي . وقد اسهم العامل الاقتصادي في بلورة الحضارة المغربية منذ فجر الاسلام ، فالأمة المغربية قد استقبلت الفاتح العربي كمحرر لا سيما وان العرب حملوا معهم الى افريقيا كما يقول كوتبي « حكومة نظامية مجهزة بجميع المقومات العسكرية والادارية » فكان في ذلك الخلاص من جبايات مرهقة فرضها الرومان الذين احوالوا الشمال الافريقي الى « مخزن محاصيل » لامداد روما فكان الامبراطور الروماني نفسه اكبر ملاك عقاري في المغرب الكبير . ومنذ اواخر القرن الثاني الهجري انطلق الاقتصاد المغربي من عقالة فانتظم وأصبح « منطقيا قاراً » كما وصفه المؤرخ طيراس في تاريخ المغرب ، وامست عاصمته الادريسية فاس مركزا اقتصاديا وفكريا رسم الخطوط الاولى للوحدة القومية والتخفيف من عوامل الانفصالية والتشتت القبلي لاسيما بعد ان تجمعت في العاصمة الجديدة ثمانمائة عائلة اندلسية هاجرت اليها (عام ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م) بعد وقعة الربض وقبلها ثلاثمائة اسرة قيروانية (١٩٨ هـ) وقد شاهد المغرب اول عملة وطنية مستقلة عام ١٨٥ هـ حيث تبلور الاشعاع الحضاري باستقرار اقوى (حتى في الصحراء) وتوسع العمران وانبثاق مدن جديدة ، وتعززت الفلاحة التي كانت محور الاقتصاد بأعمال الري الكبرى وازدهرت الحركة التجارية فكانت سجلماسة الصحراوية مركزا للقوافل بين المغرب والبصرة وبغداد ، وكانت الظاهرة الاساسية التي اتسم بها هذا العصر هي الطمأنينة والامن مما شجع ظهور البوادر الاولى لانتشار الضيع الزراعية . وما لبث هذا الاقتصاد ان تكيف فامتست مصادره وموارده باتحاد الاندلس والمغرب . وهكذا فعند ما كشف عباس ابن فرناس الاندلسي - وهو اول طيار عربي بالاضافة الى الجوهري استخدم آلة لامتطاء الاثير - طريقة جديدة لصنع الزجاج من الحجر تكونت آنذاك مجموعة من الصناعات سبقت البندقية الى كثير من الكشوف وغمرت العالم بأصناف المنجزات من اقداح وعلب وانابيب وآوان كيمائية . وكانت المصانع تنفخ الزجاج وتفرغه وتنحته وتعزز بذلك فن الترصيع في دمشق والزجاج البلوري الرقيق الذي سبقت به مصر صناعات بروسيا وتشيكوسلوفاكيا اوائل هذا القرن .

وقد جعل الموحدون - كما يقول اندري جوليان في تاريخ افريقيا الشمالية حداً للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف فظهر عنصر جديد هو التصنيع واصبحت سبتة مركزا دوليا لانتاج الورق يضاهيه جودة ورق شاطبة في الاندلس وسامرا في العراق ، وكانت هذه المراكز تمد

اوربا الشرقية والغربية . وقد عثر المستشرق كازيري في الاسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام ١٠٠٩ م (وهو هذا العصر بالذات) يدل على ان الورق المقصود كان من القطن وقد سبق المغرب اوربا الى صنعه . ومعلوم ان العرب اول من صنع الكاغد من الخرق البالية (لوبون - حضارة العرب - ص ٥١٩) وقد أصبحت في فاس وحدها ايام الموحدين ٣٠٩٤ مصنعا للنسيج و ٤٧ للصابون و ١٢ لتسبيك الحديد والنحاس واحد عشر معملا للزجاج واربعمائة لصنع الورق او الكاغد (٤٣) ، علاوة على الثروة المعدنية التي اتخذت موادها الاولية من حديد ونحاس وفضة وتوتياء وغيرها منطلقا لسلسلة مصانع انتشرت بسرعة في حواضر المغرب وبواديه بالاضافة الى مصانع السكر ، فازدهرت المبادلات بين المغرب ودول اوربا وخاصة موانئ بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وكان المسلمون آنذاك هم اول من نظم الاساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية - كما يقول اندري جوليان - الذي اكد ان الاسطول المغربي اصبح آنذاك اول اسطول في البحر الابيض المتوسط .

ونفتح هنا قوسا صغيرة لنؤكد ان الروح القانونية نجدها متبلورة في مواقف المغرب الذي كان يقف دائما في صف الشعوب التواقة الى التحرر كشعب الولايات المتحدة الذي كان المغرب اول دولة اعترفت باستقلاله في العالم ايام السلطان محمد بن عبد الله المحدث الفقيه السلفي (المتوفى عام ١٢٠٤ هـ) الذي كانت دول اوربية تدفع لاسطوله جزية سنوية ، لحمايتها من القرصنة في البحر الابيض المتوسط كما برهن عن روح دولية اكد المؤرخ والحقوقي الفرنسي الكبير جاك كايي انه سبق بها ما عرفته اوربا في العصر الحاضر .

وكانت هذه الفترة التي استمرت ازيد من ثلاثة قرون اروع فترة في تاريخ وحدة المغرب العربي تفتقت خلالها معالم الحضارة ومراسم العمارة وبدائع الفن انضافت الى قوة التخطيط الاجتماعي الذي تبلور في تأمين السبل الصحراوية والتفجر الديمغرافي وتكاثر المارستانات وتزايد المدارس والاحياء الجامعية وانطلاق مصانع المراهم والادهان والاكحال (٤٤) . ولعل من ابرز مظاهر هذا الازدهار آخر ايام بني مرين القوة الشرائية للنقود حيث لاحظ ابن بطوطة انها كانت تعدل في المغرب ثلاثة اضعافها بمصر . وبالرغم من النكبات التي بدأت تترى على المغرب بعد نكبة « الفردوس المفقود » فان المنصور السعدي استطاع اواخر القرن العاشر الهجري في معركة « وادي المخازن » ايقاف غزو البرتغال للشواطئ المغربية مع تقليص النفوذ الاستعماري البرتغالي في البحر

الهندي والخليج العربي كما كان اسطوله قبل ذلك رادعا للصليبيين في سواحل الشام وفلسطين . وصعقت اوربا بعد الهزيمة النكراء التي الحقها المغرب بالبرتغال الذي فقد استقلاله من جراء هذه الضربة ازيد من ستين سنة ، فصارت الدول الغربية تخطب ود السلطان السعدي واقترحت انجلترا عليه التعاون لتأسيس كوندومنيوم الهند ، ونفق الدينار الذهبي المغربي على الصعيد العالمي وتساعد التصنيع وخاصة تكرير السكر الذي اصبح البلاطان الفرنسي والانجليزي يتنافسان في اقتنائه كأجود ما ينتجه العالم . وبعث المغرب تقوية لمبادلاته مع اوربا عملاء للدعاية لمنتجاته كما شارك في المعارض الدولية ك معرض باريز عام ١٢٨٥ هـ وحمى الصناعة الاهلية من المزااحمات الاجنبية وبذلك برهن في شتى المجالات على تساوقه مع ما يستجد من معطيات الحضارة بأوربا . وقد عرف المغرب انظمة اقتصادية واجتماعية سبقت الاحداث والكشوف الاوربية ؛ فقد منحت الدولة مثلا القروض للدور التجارية لجلب المحاصيل اعوام الجفاف وبيعها بأثمان في متناول الشعب كما كانت تتخذ كل الوسائل لالقاء ما يزيد على الاعشار والزكوات من مكوس وجبايات تخفيفا لوطأتها على الشعب وعلى اقتصاديات البلاد ولعل المغرب كان من اكثر الشعوب ايمانا بفعالية العمل كراس مال قبل ظهور نظرية كارل ماركس التي يعتقد انصار الاشتراكية والشيوعية بأنها مكسب جديد للانسانية ، فقد اكد ابن خلدون في تاريخه (٤٥) ان « الكسب هو قيمة الاعمال البشرية » فلذلك لاحظ ماسينيون في احصاء قام به عام ١٩٢٤ للصناعة المغربية (٤٦) ان عدد رجال الحرف في المدن المغربية يعادل نصف عدد السكان كما اعترف المؤرخون الاجانب بأن نظام الحناطي عندنا وهو اشبه بما عرف اخيرا في ايطاليا (système des corporations) كان يعمل في اطار من الحرية الكاملة لم يفسد الا باحتكاكه بنظريات اوربا . وقد امتاز الانتاج الصناعي المغربي بجوده نادرة فتحت له منافذ في اوربا الى آخر القرن الماضي ويكفي دليلا على ذلك قطن المغرب الذي كان فيه نوعان معروفان في اوربا « سى - ايسلاند » لهما سدى حريري طويل من الطراز الامريكي . وقد تساوق مع ازدهار التصنيع ازدهار الفلاحة حيث بلغت السوائم وحدها خمسين مليون رأس من الغنم والمعز وستة ملايين رأس من البقر (٤٧) . ويرجع التفجر الديمغرافي بالمغرب لقلّة الوفيات ولارتفاع معدل الاعمار الى ما بين ٦٥ و ٧٠ سنة في الحواضر ومائة في الاطلس بفضل انتشار المارستانات والملاجىء الصحية وخلو المجتمع الاسلامي من امراض العصر الناتجة عن الخمر او الزنا مثل امراض التناسلية التي عرفت بالمغرب بالامراض الاسبانية او الفرنسية) .

اما في الحقل الجامعي فقد احتفل المغرب منذ سنوات بذكرى مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين التي ما فتىء المؤرخون الغربيون يعتبرونها « اول مدرسة في الدنيا » لا تزال قائمة الى الآن ، كما اعتبروا مدينة فاس في افريقيا اشبه بآثينا عاصمة الفكر بأوربا واعتبرها المشاركة انفسهم وخاصة منهم العراقيين كبغداد المغرب (٤٨) اي كعاصمة للغرب الاسلامي بالنسبة لدار السلام في حاضرة الخلافة . وهكذا امتاز المغرب بمدارسه الرائعة التي هي احياء سكنية للطلبة كما امتاز بمعاهد تقنية في القرن الماضي كمدرسة المهندسين (٤٩) ومدرسة المدفعة (بالجديدة) ومدرسة الفنون . وتعزز هذا الانبعاث الفكري بايفاد بعثات من الطلبة الى الخارج لاستكمال معارفهم العلمية والتقنية كما تعزز نتاج العقول بمطبعة حجرية نشرت مئات المخطوطات العربية المختارة من بين آلاف المخطوطات النادرة المكسدة في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب .

واذا كان للشعوب والامم مجال يجب الانصراف اليه تعزيزا للكيان الوطني ودعمًا للحضارة القومية فهو هذه المجموعة من المجالات التي تستلزم تخطيطاتها الرصينة درجة عليا من التقدم الفكري والسمو الاجتماعي والتطور التقني بالإضافة الى الكفاية الاقتصادية ، ولذلك عمد الاستعمار - كما يقول اندري جوليان - الى التعجيل بانهيار المغرب اقتصاديا للسيطرة عليه سياسيا ففرضت فرنسا حمايتها عام ١٩١٢ م عن طريق القروض والدبلوماسية المالية ، ولذلك وجب ان تستفيد نهضتنا الجديدة من هذه العبرة فتتلافى كل استرهان لمقوماتها وتوجه تخطيطها الى دعم سياستها الوحودية العربية في الاطار العالمي عن طريق تراثها الطبيعي . فلو ان العرب استطاعوا خلق وحدة اقتصادية حقيقية تحتجز الثروات وخاصة البترول وارصدة البنوك ومختلف اوجه الاستثمار لتوفر لدينا اكبر ضغط سياسي على الغرب الذي ما زال يستنزف قواها الحيوية ويجرح كرامتنا بمكايدته . ومن مظاهر حضارتنا الفكرية التي يجب ان ندأب متكاتفين شرقا وغربا على صونها ودعمها لربط الماضي بالحاضر مكانة اللغة العربية التي كان نفوذها في العصور الوسطى بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية كان يوقن بأنها هي الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب كما يقول جورج ريفوار « وقد انطلق المنهاج العلمي اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الاوربية » ، بهذا اعترف الاستاذ ماسينيون الذي اكد « ان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهرى للسلام بين الامم في المستقبل » فلا يمكن اذن لاية نهضة عربية حديثة ان تكتمل دون ان تستعيد

لغة الضاد مكانتها المرموقة في المحافل الدولية علميا وتقنيا وحضاريا ، ولنقصر نظرنا على مثال واحد يبرز مدى اسهام المغرب العربي في دعم لغة الضاد فهذا الشيخ مرتضى الزبيدي امام اهل اللغة في القرن الثاني عشر يتلمذ لابي عبد الله محمد بن الطيب الشرفي الفاسي (المتوفى عام ١١٧٠ هـ) في اكبر موسوعة لغوية في العصر الحديث « هي تاج العروس من جواهر القاموس » (كما يتلمذ لمحمد الحسن بن البليدي الجزائري) « المقولات العشر للدكتور حقي » وقد كان للاستاذ المغربي اثر عميق في تكوين تلميذه المصري حتى انه لا يمر مشكل الا واستند الزبيدي في حله الى شيخه الذي كان اللغويون يصحجون المعاجم من املائه وتحليلاته كما فعل ابن القزاز البربري حيث صحت عليه اللغة في القرن الرابع الهجري مع صاعد العراقي . اصف الى ذلك ان الفكر المغربي قد طعم المعجم العربي بطائفة من المصطلحات النابعة من مصادر الاشتقاق العربية الاصلية (٥٠) والتي اكتملت بها مجالى الحضارة العربية في الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران . وقد استعرضنا جوانب من هذه المظاهر في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » الذي هو عبارة عن سلسلة محاضرات القاها في القاهرة باشراف معهد الدراسات العربية العليا . فعناصر التكامل هذه لا ينبغي ان تخلق في حضارتنا العربية ثنائية متنافرة الطرفين بل كيانا متساوق الاجزاء ينطلق من المفهوم العلمي العربي الخاص الى المدرك العلمي الانساني العام في تجاوب يحفظ للكيان العربي عالميته التي ظلت طابعه البارز طوال القرون الوسطى الى العصر الحديث . وقد فجر الاستعمار بين الاخوة في الشرق والغرب هذه الثنائية الانفصالية التي ما زلنا نعاني من ويلاتها الامرين في مجاذباتنا الهامشية التي تنسينا احيانا عمق المشاكل المصرية . وحتى في ادق مجالات المعرفة كان للمغرب النصيب المرموق فقد استطاع ان يسهم حتى في تكييف الفن المعماري العالمي بروائع ما زالت قائمة الى الآن حيث تجلّى ابداع الموحدين منذ القرن الخامس في روعة وفخامة مرصد الخالدة او الخيرالدة (Gerald) باشبيلية ، ومسجدي حسان بالرباط والكتيبة بمراكش ، كما امتاز الفن المريني في القرن الثامن برقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرنصات والترسيمات ونقوش الخشب والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات والجدران بالزليجيات . ورغم اتجاه الفن المعماري منذ القرن العاشر الى هندسة الحصون والقلاع لمواجهة الغزو الاستعماري الاوربي فقد ظل ينافس اوربا في التجديد حيث لم يكن قصر « الرياض » بمكناس يقل روعة عن قصر « فيرساي » بفرنسا . وهكذا تبلور في الفن المغربي طابع خاص أضفى

على الحضارة في الشرق الغربي للوطن العربي لونا جديدا شكل احدي لبنات انبعاث الانسانية الفكرى منذ العصور الوسطى .

ومن هذه العجالة يتجلى انه اذا كان المغرب العربي قد حقق تطورا رائعا في مجالات الفكر والحضارة المختلفة فما ذلك الا بفضل تساقط النشاطات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين شقى العروبة ؛ فأبلغ الروابط واعمقها قد استوثق بين الشرق العربي والشمال الافريقي والانديس على يد رسل الفكر الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحدانا في موجات غامرة كل عام للحج او الدج ، وكان لهذا التبادل مظاهر شتى تبلورت في وفرة الوافدين من علماء المشرق على ملوك المغرب حماة العلم والفكر امثال المنصور السعدي (٥١) الذي احتضن بلاطه رجالات افذاذ من الحرمين والقدس ومصر والشام والعراق والهند ، وكان افصح جواز يقدمه المواطن المغربي او المشرقي في الحدود المطاطة هو اسلامه وعروبه فكانا يستقضيان ويستسفران في الحواضر العربية والاسلامية شرقا وغربا دون ميز يتبوان هنا وهناك المناصب السياسية والدبلوماسية والعلمية ، فلم يكن للمواطنة الضيقة اي اثر في الجبلولة دون انبثاق هذا الشعور الفياض بالوحدة التلقائية النابعة من وحدة الدين واللغة والتاريخ والمصير . وقد ظل اقطاب الفكر المغربي ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات العلمية ووجوه النظر في مختلف المجالات التقنية باطراد ووثوق كما عرف الشرق كيف يقدر في شخص زملائه في الغرب الاسلامي حرية الفكر ونزعة التجديد . ولعل ما لاحظته المقرئ وقبله ابن خلدون من فروق بين الشقين في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية يرجع الى انطباع الشرق بالعمق الكلاسيكي في ملكة العلوم واصطبغ الفكر المغربي بالوان من البحث جديدة تحت تأثير التفاعلات مع الغرب . ومن بين المغاربة الذين كان لهم ضلع قوي في دعم هذا التبادل الثري بين شقى العروبة نجتزىء بالاشارة الى بعض ممن عاشوا في العراق امثال :

١ - جمال الدين محمد بن ابي بكر البغدادي اصله من قصر كتامة وهو صاحب الوتريات وقد ورد على مراکش عام ٦٥٥ هـ ثم للمرة الثانية عام ٦٦٣ هـ (الاعلام للمراكشي ج ٣ ص ١٥٢) .

٢ - محمد بن احمد بن ابراهيم البغدادي الفاسي المتوفى بفاس عام ٥٤٦ هـ (تكملة الصلة لابن البار ج ٢ ص ١٩٣ ، الذيل والتكملة لابن عبد الملك ج ٤) .

٣ - ابو الحكم عبيد الله (او عبد الله) بن المظفر الماريني المغربي كان طبيب المارستان بالعراق ايام السلطان محمود السلجوقي (وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٠٧ ، خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني (قسم المغرب ، تونس ١٩٦٦ ص ٢٨٩) .

٤ - عبد الله المراكشي الهنتاني جمال الدين فوض الله عمر البغدادي المعروف بالمجرد توفى عام ٧٩٥ هـ (الاعلام للمراكشي ج ٦ ص ١٠٢ مخطوط) .
كما تتلمذ للغزالي صالح بن حرزهم الفاسي (انس الفقير لابن قنفذ ص ١٢) وابن حنين الكناني المتوفى بفاس عام ٥٦٩ هـ (الجذوة ص ٣٠٤ و ٣٢٢) وعبد القادر الاندلسي التطواني التبين المتوفى عام ٥٦٦ هـ (تاريخ تطوان - لمحمد داود ج ١ ص ٧٤) .

اما العراقيون بالمغرب فقد الفت في شأنهم المصنفات منها « العراقيون الحسينيون بالمغرب » لمحمد هاشم زيان العراقي (فهرس الفهارس ج ١ ص ٢٤٦) « والشيعية العراقية بالمغرب » لاحمد بن عبد الوهاب الوزير الفساني « ومطلع الاشراف من الشرفاء الواردين من العراق » لعبد السلام القادري .

كما شارك مغاربة في كفاح الشرق ضد الاستعمار منهم :

١ - يوسف بن دوناس الفندلاوي استشهد في حرب الصليبيين في الشام عام ٥٤٣ هـ (معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠١) .

٢ - العباس بن احمد الفاسي استشهد في الحروب الصليبية بالشام عام ٥٩٥ هـ (الجذوة ص ٢٧٨) .

٣ - يوسف بن محمد بن عبد الله البلوي المالقي المتوفى عام ٦٠٢ هـ غزا مع صلاح بالشام (تكملة ابن الابار ص ٧٣٧ ، صلة الصلة لابن الزبير ص ٢١٧) .

٤ - محمد الجيلاني السباعي المراكشي حارب الفرنسيين بمصر (عجائب الآثار للجبرتي ج ٣ ص ٤٤ ، الاعلام للمراكشي ج ٥ ص ١٤٤) .

فهل يمكن لاية وحدة ان تقوم على غير هذه الدعامة من التكامل بين اجزاء العروبة وهل يتأتى لنهضة عربية رصينة ان تنبثق في العصر الحديث دون

الارتواء من هذا المعين الصافي الذي عكرته ولا تزال رواسب وذبول التخلف الناتج عن انفصال اجزاء الوطن العربي بعضها عن بعض ردحا طويلا من الزمن تحت ضغط مكاييد الكائدين . وهناك مظهر آخر لحضارة المغرب يتجلى في رسالتها في افريقيا واوربا وامريكا الجنوبية فالمغرب يحتل موقعا ممتازا في القارة الافريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة . ولكن هذا الوضع المحظوظ في قلب العالم الغربي لم يفت في اعضاد روح المغرب الشرقية التي عززتها وشائج شتى وطبعها الاسلام والعروبة بميسمها النهائي .

ان المغرب الذي يتحلى منذ ازيد من الف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب .

ويقبض المغرب - بفضل طنجة التي كانت عاصمته الدبلوماسية - على مقاليد غربي المتوسط بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقي . ولذلك فان هذين الطرفين العربيين الذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة في الوضع الدولي الراهن لابد أن يلعبا دورا مهما في حوض المتوسط الذي لا يمكن ان يتم شيء بدون مساهمة - تركز على المساواة والسيادة - من طرف جميع الاقطار العربية التي تمتد حلقاتها من طنجة الى دمشق على طول ثلاثة اخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم ان تفرض وجودها على الافكار الغربية قبل اليوم .

وبلغ اشعاع الفكر العربي عن طريق المغرب اقاليم افريقية شاسعة تمتد الى تخوم النيجر جنوبا وحدود مصر شرقا ، فكان المغرب محور ومصدر حيوية نابعة عن الاستقلال الذي كان يتمتع به فلم تعد هناك دولة عربية مستقلة في افريقيا غير المغرب بعد عام ١٢٥٠ م ، حيث سقطت مصر نفسها تحت سيطرة الاتراك . فظل المغرب يواصل طوال الف عام حمل مشعل الحضارة العربية كولد بار للشرق العربي الرائد موقنا بأن الانتماء للشرق هو الميزة الجوهرية في حضارتنا بل هو القوام الاساسي لكياننا ، ولهذا شكل المغرب كجزء قائم من هذا الوطن العربي نقطة وصل مع اوربا وقنطرة الى العالم الجديد وذلك ضمن التأثير الذي تركته حضارتنا في الغرب والذي لم يكن لينصرم - ضمن تبادل موصول - لولا تلك الآفة الاستعمارية التي حولت من جراء مطامعها التوسعية مجرى تاريخنا . فلو ان المغرب والغرب ظلّا مستقلّين ساسيا الواحد عن الآخر لامكنهما ان يعززا تقاربهما في نطاق روابط حرة وتناسق قارّ لان التعاون لا يمكن ان يثمر الا اذا جرى على اساس من المساواة وتبادل احترام السيادة والكيان . فحتى اذا سلمنا بما يزعمه بعض المؤرخين من وجود رواسب عاطفية ضد الاجنبي في نفوس

المقاربة فان ذلك لم يكن ذاتيا وانما هو شيء عارض تمخض عن طغيان المطامع والدسائس الاوربية في البلاد .

ان النفسية العربية التي تجمع بين النبل والاريفية لاتنفع لانفعالا سيئا الا ازاء ما يمس بكرائها الوطني ويهددها في حريتها ورمز وجودها ففكرة الحرية عند الرجل العربي ليس معناها الفردية الانانية وانما هي توقان طبيعي نزيه لتحقيق الذاتية وحفظها .

فلهذا تبلورت مدنيتنا في اشعاع ثقافي ممتاز اكثر منها في نفوذ مادي ، ومع ذلك فان قوة المغرب المادية ما فتئت سائدة في البحر المتوسط الذي كان رومانيا فأصبح طوال العصور الوسطى (بحرا عربيا) - كما يقول م ماكس فنتيجو - بجزره وسواحل واساطيله ونهضة تجارته ، واضحت لغة القرآن هي اللغة الدولية للتجارة والعلم .

وقد اكد الكاتب الفرنسي المقتدر اندري سيكفريد عضو اكاديمية باريس ان العرب غرسوا في البحر المتوسط حضارة يانعة، فطوروا الري وادخلوا غراسات جديدة كالقطن والارز وقصب السكر والحوامض (وبسببهم فقد البحر المتوسط طابعه المسيحي)

ان الاشعاع المادي للقوة المغربية في المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لابرار الرسالة التي اضطلعنا بها في هذا البحر ومع ذلك فان الاسطول الموحي الذي كان يضم اربعمائة قطعة ما لبث ان اصبح اول اسطول في المتوسط (اندري جوليان) . على ان المغرب قد تزعم العالم الاسلامي والعربي في هذا العصر مما حدا بصلاح الدين بطل الحروب الصليبية الى الاستنجاد بالاساطيل المغربية لاييقاف تقدم المسيحيين في طريق الشام ، وما لبث هذا الاسطول ان ضم ازيد من ستمائة قطعة حربية ايام ابي الحسن المريني . وسيادة العرب في البحر المتوسط ظهرت بوادرها ولما يمر على انبثاق الاسلام بضعة عقود، فقد غزا معاوية بعض جزر المتوسط بألف وسبعمائة سفينة ثم قامت الاوراش التونسية تعزز بانتاجها الجديد قوة الشرق العربي البحرية حيث صنعت في بعض ايام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة . وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجري عن حاسة استراتيجية مبكرة حيث ادرك عبد المؤمن بن علي الموحي أهمية جبل طارق الذي هو احد مفاتيح المتوسط ، فعمد الى تحصينه واحالته الى قاعدة امامية للدفاع عن افريقيا والاندلس . وحتى في خصوص فكرة الجندي المجهول نلاحظ وجود ما سمي في الاندلس بالشهيد الغريب *Le martyr inconnu* في المخاضة التي بين حصن بالما *Palma del Rio* وهي الجرف *Al-Jarf* (الادريسي ، النزهة ص ٢٠٨)

ان رسالة الحضارة المغربية الحق في البحر المتوسط تتجلى في مظهرين اثنين هما التأثير الاقتصادي والاشعاع الثقافي . على ان الدور الاقتصادي نفسه لم يكن في الواقع سوى نتيجة النفوذ الادبي فسياسة التسامح التي نهجها المغرب في اغلب عصوره قد ساهمت في توثيق الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى أصبحت المراسي المغربية في سواحل المتوسط مصدر نشاط فياض فهي التي كانت الينبوع الاول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها من المواني .

وقد اكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف المعجزة العربية (Le miracle arabe) ان الحكومة الموحدة كانت من اشد الحكومات احتراماً للحرية وان الاندلس عرفت في عهدها عصر ماجدا تألق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التي سرى تيارها المنعش في جنبات اوربا نعم ان من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب اوربا الغربية من ايطاليين وفرنسيين والمان وانجليز لذلك الانقلاب الفكري العظيم الذي تفتق عن عصر النهضة ، وقد سبق لغوستاف لويون ان قال نقلا عن العالم الايطالي ليبري Libri (لولا العرب لتأخر انبعاث الآداب في اوربا عدة قرون) .

نعم لم يتصل الاوربيون بالعلوم العربية الا عن طريق اسبانيا المسلمة التي برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية . وما لبث هذا الاشعاع العربي ان غمر شعوب الغرب فبلغ كبريات العواصم ونشل مدن بيزا وبولوني ومونبيلي وسلامانك وافتيون وباريس من وحشتها اللاتينية ، حيث فتح امامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فنتيجو . ورغم انهزام الموحدين السياسي وعودة الاندلس الى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد في نظر القريبيين حتى صارت باريس نفسها - التي أسس جامعتها الملك فيليب أوغست على اثر عودته من الشرق - تستمد من المغرب والشرق كثيرا من كسوفها .

والذي يزيد هذه الظاهرة غرابة ان الفتوح العربية لم تكن حركة توسعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية وإنما كانت رسالة تمديدية لا تهدف الى أي لون من الوان الادمج . ومن مظاهر تسامح ملوك العرب ونزاهة وجهتهم ان جوهن ملك انجلترا عرض عام ١١٩٩ على آخر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر ان يحميه ضد البابا في مقابل جزية سنوية واعتناق الاسلام من طرف انجلترا ملكا وشعبا ، ولكن الملك العربي رفض هذا العرض لان اريحيته ابت عليه استغلال الضائقة السياسية التي كان الانجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الاسلام .

ليس اذن من الغريب ان لا يتجلى اثر الحضارة العربية في ذهن الاوربي المتوسط الا في فتوح اوقف تيارها شارل مارتيل في بلاط الشهداء ؟

ومنذ القرن السادس عشر امكن للحضارة المغربية التي كانت الى ذلك التاريخ منحصرة في البحر المتوسط ان تدخل الى امريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا اذ ذاك العالم الجديد ، فقد تلقت البرازيل مثلاً طوال ثلاثة قرون متوالية تأثير المدنية الاندلسية فانسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربي ينمو ويضعف حسب الاصقاع ، فتقنمت المرأة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت اسلوب حاتها كما فعلت المرأة الصقلية المسيحية فيما حكاه الرحالة ابن جبير تكييفاً - يحذو حذو النعل بالنعل ما عهد في الاندلسيات والمغريات . نعم أصبح الشيء الكثير في البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا في العصور الوسطى من اناقة النساء الارستقراطيات في الحواضر واتخاذهن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبية ، الى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة في البادية . فبالرغم عن اختلاف الطقس استخدم الفلاح الامريكي اجهزة واساليب الفلاحة المغربية وانتشر استخدام الطواحين الهوائية في مجموع انحاء امريكا الجنوبية مع جميع ما ينطوي عليه نظام الري عندنا (السواقي والآبار الخ) وقد نقل المعمرون البرتغاليون الى امريكا جميع ما انجزه المغاربة في القسم الجنوبي من الاندلس من مصانع السكر والقطن الى مزارع الحوامض ودودة القز (كانت ٣٠٦٠ قرية اندلسية تتعاطى تربية دودة القز) على ان اللغة الاسبانية الامريكية تنم عن الآثار التي تركتها حضارتنا في الميدان الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بأمريكا فالاصطلاح الامريكي في المياه والسقي والري معظمه عربي ، وكثير من الازهار والنباتات العطرية مازالت تحمل في اسبانيا وامريكا اسماء عربية . اصف الى ذلك ما يسمى (مودة) النساء من اسماء الحلي والمصوغات .

والشبه وثيق بين المغرب وامريكا الجنوبية في ميدان الهندسة المعمارية حيث لا تختلف في البلدين أساليب البناء في الكنائس والاديرة والمنازل والحمامات . وقد تآثر الاصطلاح الامريكي ايضا بالمفردات العربية .

ويضيق المجال عن تعداد المناحي التي تجلت فيها آثار الحضارة المغربية والاندلسية ؛ فحتى اساليب الطبخ واسماء العائلات لا تختلف في امريكا عنها في المغرب . ووحدت اصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية الى امريكا . ورسالتنا الحضارية اصبحت في الظروف الدولية الراهنة اشد واقعية من أي وقت وابرز عنصر يجب ان تنطلق منه العناصر الحضارية الاخرى عند اخواننا في الشرق لبناء نهضتنا الحديثة .

- (١) لوكلير - تاريخ الطب العربي ج ٢ ص ٣٥٠
- (٢) لوكلير ج ١ ص ٣٣٤
- (٣) لوكلير ج ١ ص ٤٥٦ ويوجد في المكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد ١٤٢٧ د جزء من هذا الكتاب يحتوي على ٢٨ صورة للمكاوي وآلات التشريح .
- (٤) ج ١ ص ٤٠٧
- (٥) « اخبار العلماء باخبار الحكماء » ص ٨٥
- (٦) « شهرات نساء المغرب » للكانوني (مخطوط) نقلا عن « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » لكاتب اوربي لم نستبين اسمه في المخطوطة .
- (٧) كودار - وصف المغرب وتاريخه ج ١ ص ٢٣٩
- (٨) ج ٢ ص ٧٢
- (٩) ج ٢ ص ١١ و ١١٠
- (١٠) الاعلام للمراكشي ج ٣ ص ٣٤
- (١١) ج ٢ ص ٧٢ وقد اعتمد ابن البيطار ايضا على عبد الله بن محمد بن صالح الكتامي الحريري الشجار الذي كانت له حانوت بمراكش عام ٥٨٣ هـ (اللسان العربي ج ٦ ص ١٩٦٨) . اما النبطي فهو أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية او ابن المشاب ولد باشبيلية عام ٥٦١ هـ (ودرس الاعشاب شخصا دون اعتماد على ديستوريدس وجالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وقد رحل الى الشرق عام ٦١٣ هـ او ٦١٤ هـ بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب وصنف معجما للحشائش وفاق اهل زمانه في معرفة النبات وتوفي باشبيلية عام ٦٣٨ هـ (نفع الطيب ج ٢ ص ٦٣٥) وذكر لوكلير بصدد ابن البيطار (ج ٢ ص ٢٢٥) انه اعظم نباتي العرب وقد تنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وخلف لنا اعظم مجموعة في العلوم الطبيعية وقد عينه الملك الافضل في مصر رئيس عشابي القاهرة وقيل رئيس اطباء مصر (النفع ج ٢ ص ٦٨٣) وكتابه « جامع المفردات » اكمل ما صنفه العرب في الطب يحتوي على الفتي وصفة للمقاير ترجمه لوكلير الى الفرنسية وقد كان النبطي - حسب احاطة ابن الخطيب - اماما في الحديث حافظا ناقدًا .
- (١٢) او (Viatique) ومعناه زاد المسافر .
- (١٣) القفطي ص ١٣٠
- (١٤) نفع الطيب للمقري ج ١ ص ٤٤٥
- (١٥) ذكر ابن عبد الملك في « الدليل والتكملة » ان ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من اهل عصره .
- (١٦) حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، الطبعة الفرنسية ص ٥٣٠
- (١٧) تاريخ المغرب ص ٤٥٢
- (١٨) الانيس الطرب ج ٢ ص ١٨٠
- (١٩) المطرب لابن دحية .
- (٢٠) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٧٥
- (٢١) جذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣٣٥

- (٢٢) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٣ .
- (٢٣) لوكلير ج ٢ ص ٧٩ .
- (٢٤) حضارة العرب ص ٥٣١ (الطبعة الفرنسية) .
- (٢٥) نشرة المعهد المصري ٢٦ عام ١٩٣٤ - بحث بقلم ماكس مايرهوب ص ٣٣ وقد أشار ابن النفيس الى ذلك في « الكتاب الشامل في الطب » الذي كان يحتوي على ثلاثمائة مجلد اهدى منها المؤلف ثمانين مجلدا لمستشفى قلاوون .
- (٢٦) راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ص ١٣
- (٢٧) المعجب ص ١٧٧ - كتاب ميلي (Les Almohade - millet) - ١٩٢٣ ص ١٢٩
- (٢٨) نشرة المعهد الدروس المغربية العليا ج ١٨ ص ١٩٥
- (٢٩) راجع كتابنا « تاريخ الطب والاطباء بالمغرب » ١٣٨٠ / ١٩٦٠ ص ٧٢
- (٣٠) وينو ص ٨
- (٣١) الاعلام للمراكشي ج ٢ ص ٢٤٦
- (٣٢) كوتيي (Gautier) في كتابه عادات المسلمين واعرافهم ص ٢٣٨
- (٣٣) تاريخ الطب العربي - لوكلير ج ١ ص ٣٢٠
- (٣٤) حاضرم العالم الاسلامي ج ١ ص ١٥١ .
- (٣٥) نزعة المشتاق للادريسي ص ٧٦ من الجزء المطبوع حول اقريقية والاندلس .
- (٣٦) درة الحجال ص ٤٤١
- (٣٧) جدوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣١
- (٣٨) درة الحجال ص ١٠٧ وسلوة الانفاس (ج ٢ ص ٤) .
- (٣٩) درة الحجال ص ٩١
- (٤٠) الاعلام للمراكشي ج ٢ ص ٢٦٣
- (٤١) درة الحجال ص ١٧٦ + الدرة ص ٥١
- (٤٢) في كتابه عادات واعراف المسلمين عندما تعرض له .
- (٤٣) زهرة الآس للجزائري ص ٣٣
- (٤٤) المعجب لمبد الواحد المراكشي ص ١٧٧
- (٤٥) م ١ - ق ٣ ص ٦٨٦ و ٧٠٩ طبعة بيروت .
- (٤٦) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم ٤٩ - ٥٠
- (٤٧) كودار صفحة ١٨٨
- (٤٨) المعجب للمراكشي .
- (٤٩) المجلة الاسيوية المجلد العاشر ص ١٥٢
- (٥٠) راجع بعضها في المستدرك على المعاجم المغربية لدوزجي وبعضها الاخر في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » .
- (٥١) راجع بحثنا حول رسل الفكر بين الشرق العربي والمغرب العربي في مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس ١٣٨٧ / ١٩٦٧
- ★ خصصنا العراق الشقيق بالذكر لان هذا البحث اهدى للمؤتمر الدولي للمؤرخين الذي انعقد عام ١٩٧٣ ببغداد .